كتاب الشباب

عودة العيد



قصص

أحمد عبدالسلام البقالي

مكتبة العبيكان



عــودة العيــد

بقلــم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان للنشر

ⓒ مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي ، أحمد عبد السلام

عودة العيد. ـ الرياض

... ص؛ ... سم. ـ (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك X ـ ٢٣٣ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٠٨٧٢، ٨١٣ ١٧/٠١٤٠

ردمك X ـ ٢٣٣ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠١٤٠

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
الطبعة الثانية – مكررة
١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

هلَّ هِلالُ شهْرِ ذِي الحِجَّـةِ المُبَارَكِ، واقتَرَبَ عِيدُ الأضْحَى، وبدأنَا، نَحْنُ تلاميذَ المدرسَةِ القُـرآنيةِ، نخْرُجُ في أوقَاتِ فَراغِنَا إلَى السُّـوقِ لِنتَفَـرَّجَ على الكِبَـاشِ والماعِـزِ والخِرفَـانِ التِي تُبَـاعُ لتُذْبحَ يومَ العِيدِ.

كَانَ النَّاسُ يجْتَمِعُونَ حَـولَ القَطِيعِ كَحلقَةٍ مُحكَمَةٍ ينْظُرُونَ إلى الكِبَـاشِ المُتراصَّـةِ في وقْفتِهَـا، لاَ ترَى إلاَّ رؤُوسهَـا من كَـومـةِ الصُّـــوفِ... وكـانتِ الأعيُنُ تنْظُـرُ إلى الـرُّؤوسِ والقُـرُونِ والوجُوهِ، والأيدِي تَتحَسَّسُ الظُّهُورَ والأورَاكَ والذُّيُولَ بحْثًا عن الشَّحمِ واللَّحْمِ.

وكُنَّـــا، نحْنُ الصِّغَـــارَ، نتسلَّلُ بينَ الأرجُـلِ لنَصِلَ إلى المقـدِّمــةِ، لنتَفَـرَّجَ على الخِرَافِ، ونَلْمِسَ صُـوفَهَـا وقُـرونَهَا، ونَقرصَ ذُيولَهَا لتُحاوِلَ الفِرَارَ وتُبعْبعَ وتَقُومَ بفَوضَى.

وفي شوارِعِ المدينَـةِ، كَانَ النَّاسُ يسُـوقُونَ (الحَوالَى)[1]، كلٌّ حَسَبَ طـريقتِـهِ: منهُم مَنْ يجُرُّهـا مِـن قُـرونِهَا وهي تُثَبِّتُ حَوافِـرَهَا في الأرضِ رافِضَـةً أنْ تَتَحَرَّكَ، وَمِنْهُم مَنْ كَـانَ يرفَعُ قائمتيها الخَلْفِيتَيْنِ ويدفَعُها أمامَهُ كالبَرويطَةِ[2]. . .

وكانَ النَّاسُ يقفُونَ للتَّفرُّجِ على هَذَا المَشْهَدِ سَائِلِينَ:

- بِكَمْ هَذا المَبْرُوك؟

فكَـانَ أصْحابُـهُ يُجِيبُونَ إجَـابَـاتٍ مقْتضَبَةً، وهُـمْ يَمْسَحُـونَ العَـرَقَ عَنْ جِبـاهِهِمْ بأكْمامِ قُمْصَـانِهِمْ، ويستَـأْنِفُـونَ الجَرَّ أو الدَّفْعَ.

ولَمْ نكُفَّ عَنِ الخُروجِ للسُّوقِ والتَّفَـرُّجِ على القُطعَانِ، حَتَّى اشْتَرَى أهْلُنَـا لَنَا كِبـاشَ العيـدِ. واتَّفَقْنَا، نَحْنُ أولادَ الحُومَـةِ، عَلَى إخْرَاجِ كِبَـاشِنَا مَعًا لِنرعَـاهَا. وكُنَّا نحوَ خَمْسَـةَ عَشَرَ وَلَدًا، فَكُنَّا نَخْرُجُ بقَطِيعٍ يجَاوِزُ عَدَدَنَا قَلِيلاً.

---

(١) الحوالَى: جمع حوليّ، الكبش الذي مرَّ عليه حولٌ أي سنة كاملة.

(٢) عربة شحنٍ ذات عجلة واحدة تدفع باليدين.



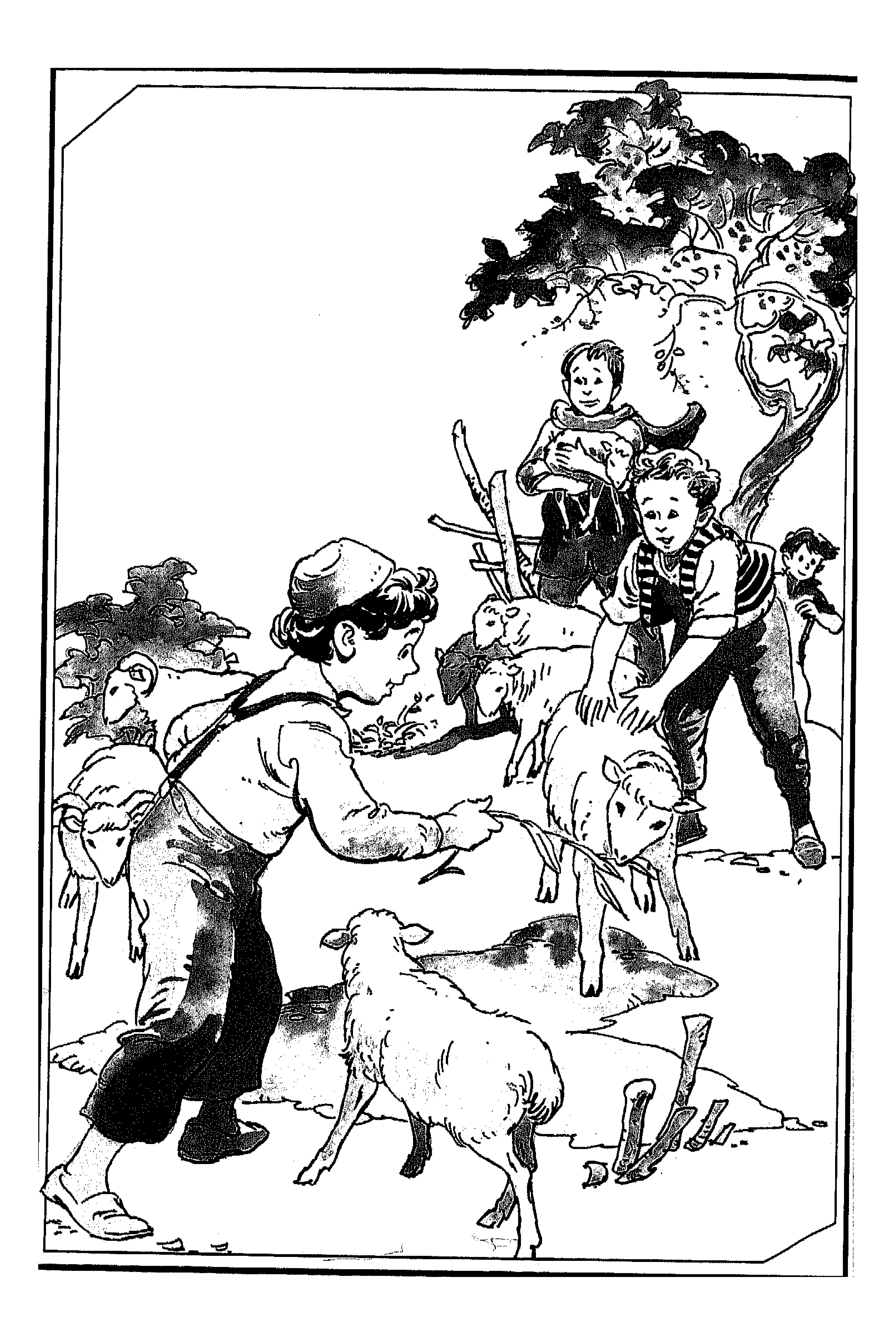
وَكَـانَ يَتَقَـدَّمُنَـا ، ونَحْنُ نَهُشُّ عَلَى غَنَمِنـا ، «رحَّـال البَرَّاق» بِمِزْمَـارِه ، يعزِفُ عليهِ ، ويَدُورُ حَـوْلَ نَفْسِه ، ظَنًّا مِنْـه أنّ أَلْحانَه الجَميلَةَ ستَجْعَلُ الخِرفَانَ تَتْبَعُه .

وكُنَّا نَحْـنُ ندفعُهَا مِنَ الخَلْـفِ حتَّى نَصِلَ إلى غَابَـةِ «سِيدِي الغَزْوانِي» على شَاطئ البَحْرِ.

فَـرغْم وُقُوعِ مسجـد سِيدِي الغَـزْوانِي وَسطَ المَدِينَـةِ فَاصِـلاً أخْضَرَ بيْنَ المَدِينَةِ القَدِيمَـةِ المُحَاطَةِ بالسُّـورِ، والمَدِينَةِ الأوروبيَّةِ الحَدِيثَةِ ، فَقَدْ كَـانَ شِبْه غَابةٍ مَهْجُورَةٍ وكَـانَتْ تَنْبُتُ بِه أحْرَاشٌ كَثِيفَـةٌ مِـنْ شَجَـر الـدّلَمِ والـزَّيتُـونِ والصَّفْصَـافِ وكَثِير منَ الأعشَابِ المُشْبِعَة لِلْحيَوَانِ المُجْتَرِّ.

وَهُنَـاكَ كنَّا نُطْلِقُ غَنمَنَـا ونَتَفَـرَّجُ علَيْهَا وهِيَ تـرتَعي وتلعبُ حتَّى سـاعَـةِ الغُـروبِ ، فَنُعِيـدُهَـا إلى ديـارنَـا شَبْعَـانَـة ونحن جَائعُونَ .

وتعلَّمنَـا كَيفَ نَجْعَلُ أغنـامَنَا تَتْبَعُنَـا ، وذلكَ بـالتَّلْـويحِ لَهَا بأعشَـابِ «البَرْوَقِ» أو العَسْلُوجِ الشَّـائِكِ الحُلْـوِ. وكُنَّا نَأتِيهَـا



بالخُبزِ والسُّكَّرِ وحبُوبِ الشَّعِيرِ لِمكـافأتِهَا على طَاعةِ أوامِرِنَا . ولَمْ تَعُـدْ لنَا صُعـوبةٌ في أخـذِها إلى المَرعَى أو العـودَةِ بهَا مِنْه ؛ فقَـدْ كَانَتْ تَجرِي خَلْفَنَا بِحَمَاسٍ وسَعَادَةٍ .

وذَاتَ يـومٍ ونَحْن نَلْعَبُ لاَهِينَ عَنِ الأغنَـامِ بمَا صنَعْنَـاهُ مِن قسِيّ وسِهَام ونَـواوِيلَ ، نُمَثِّلُ الهُنُـودَ الحُمْرَ ، ورُعَـاةَ الأبقَارِ ، إذْ وقَفَ علَيْنَـا رجُلٌ عِمـلاقٌ ، عليـهِ سِيمَاءُ البَـادِيـةِ . كـانَ يلبسُ جلبابًـا تُرابيَّ اللَّونِ ، ويتَعَمَّم بشَـالٍ مُزركَشٍ بالحَريـرِ الأصفرِ. وكَانَتْ لَهُ لحيةٌ سوداءُ قصيرةٌ ، وعيْنَـانِ ثَاقِبَتَانِ ، عليهِمَا حاجبانِ كَثِيفَانِ .

وتَفرس فِينَا جَمِيعًـا بنظراتِه الثَّاقبَـةِ . ومَا إنْ وقَعَتْ عيْنَاهُ عليَّ حتَّى انفَرَجَ وجْهُهُ الكبيرُ الأحمرُ عن ابتسامَةٍ عريضةٍ ، فأشارَ إليَّ بإصبعِهِ :

– أنْتَ هُو. أنتَ أحمدُ ابنُ أخِي ، أليسَ كذلكَ ؟

ولمْ ينتظِـر جوابِي فَسعَى نَحـوِي ، وجَثَـا على ركْبَتَيْهِ أمـامِي ، وعانقَنِي بحَنَانٍ كبيرٍ ، قائلاً :



- طَبْعًـا أنتَ لاَ تَعْرِفُنِـي ! كَيفَ تعرِفُنِي وأبـوكَ حَـابِسٌ لكَ هنَا، بينَ جُدْران المَدِينَةِ، كالـدَّجَاجَةِ في الخُمِّ؟ كَم مرةٍ قُلْتُ لَهُ أنْ يَبْعَثَكَ إلَيْنَـا فِي الجَبَلِ لتَتَعـرفَ أبنَـاءَ عَمكَ، وتعيشَ معهُم قليلاً، وتنعَمَ بركوبِ الخَيْلِ وشُربِ الحليبِ السَّاخِنِ مِن ضِرْعِ الأَبقَارِ والمَاعِزِ، وقَطْفِ الفواكِهِ الطَازجَةِ منَ الأشْجَارِ.

ووَقَفَ حـولنـا زُمـلاَئِي الصِّغَـارُ وهُم يحسـدُونَنِي عَلَى هَـذِه الحظْـوةِ الكبيرَةِ التي نَـزَلَـتْ عَلَيَّ من السَّماءِ، خُصُـوصًـا حِينَ تَنَاولَ عَمِّي قُبَّهُ[1] وأخرَجَ مِنه شيئًا بَهَرَ الجَمِيعَ، وجَعَلَ عُيونَهم تـرشقُنِي غيرةً وحسدًا. أخْـرَجَ لِي كُـرةً كبيرةً ملوَّنَـةً، ونَاوَلَنِيهَـا قَائلاً:

- خُذْ. هَذِه لكَ. اشْتَرَيْتُهَا لكَ مِن طَنجةَ.

ثُم أدخَلَ يَـدَهُ في جَيبِه، وأخْـرَجَ قِـرطاسًـا فَتَحَـه بأصابِعِـه الضَّخْمَةِ الخَشِنَةِ، فوَضَعَ في كَفِّي مِنْه حفْنةً مِن حَلْويَاتِ الجَبَل المُلَوَّنَـةِ، ثُم أخَذَ يوزِّعُ عَلَى بَقيـةِ الزُّملاءِ، وهُمْ يتَنَـاولُونَ القِطَعَ

(١) القُبُّ: غطاء الرأس وطرف من الجلباب.



شَاكِرِينَ لَه ولِي هَذِه المُفَاجأة السَّارة .

وبعْدَ هذَا دَفَعَنِي عَمِّي ـ الذِي سَقطَ هَدِيةً مِنَ السَّماءِ ـ قَائِلاً :

- ألاَ تُجَربُ كُرتَكَ الجَدِيـدَةَ ؟ الْعَبْ مَعَ أصحَابِـكَ . اذْهَبُوا إذَا شِئْتُم إلَى الشَّاطئ الأملَسِ ، والْعَبُوا هُنَاكَ .

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، اختَطَـفَ صَدِيقِي «عِنَانٌ» الكُـرَةَ مِن بينِ يدي ، ورَمَـاهَا نَحْـوَ الشَّاطـئ ، فَتَبِعْنَاهَـا صَائِحِينَ مبتهِجِينَ ، يَدْفَعُ بعْضُنـا البَعْضَ ، حَتَّى وصَلْنَا إلى رمل البحر ، فتَـوقَّفْنَا عَنِ اللَّعِبِ ، وعُـدْنـا إلَى حَيثُ تَـركْنَـا قَطِيعَنـا في حـدِيقَـة سِيـدِي الغَزْوانِي ، فصُدِمْنَا بالمَفَاجَأةِ الرَّهِيبَةِ . . .

كَانَ عَمِّي المزعُومُ قَـد اخْتَفَى فجأة ، كَمَا ظَهَرَ فَجأةً . انْشقَّتِ الأَرْضُ وبَلَعَتْه وبلَعتْ مَعهُ قَطِيعَ كِباشِنَا . . !

صُعِقْنـا أولاً لِلْمفَاجَأةِ . ولمْ نَـدْرِ مـا نَفعلُ ، ثمَّ تفرَّقْنَـا وسَطَ الغَابَةِ نَبحَثُ ونُنادِي حتَّى التَقَـى بعضُنا البعضَ علَى أطرافِهَا ، ولاَ أثر لكَبْشٍ من كِباشِنا . . .

ونَزَلْنا إلى بُيوتِنَا ، وبعضُنَا يَبْكِي مُتَـوقِّعًا ما سَيَنَالُه مِن عِقَابٍ



عَلَى هَذَا الإهْمَالِ الفظِيـعِ . وقَررَ البَعْضُ ألاَّ يعُـودُوا إلى بيُوتِهم ، وأن يستَجِيروا بالأقارِبِ .

وبَاتَ الجميعُ تِلكَ اللَّيلَةَ في سَعِيرٍ مُحرِقٍ مـنْ غَضَبِ العَائِلَةِ وسخطِهَـا . ولَو مَـرَرْتَ بحَـومتِنَا لهَالَـك ما تَسْمَعُـه مِن صُراخٍ وبُكاءٍ ، وكأنكَ في مأتمٍ جَماعِيٍّ .

وبَعْـدَ صـلاَةِ العِشَاءِ تلكَ اللَّيلَـةَ اجتَمَعَ رِجـالُ الحَوْمَـةِ في جَامِعِ ابنِ عيَّـاد ، وعقَدُوا شِبْه مؤتمرٍ مفَـاجئ ، وتزَعَّمَ الاجتماعَ عبدُ السلامِ البَيْضَاوِيُّ ، سَائِقُ الشَّاحِنَةِ ، فقَال :

- يَجِبُ أن نَبحَثَ عنِ السَّارِقِ حَـالاً ، وقبلَ أن يَتَخَلَّصَ من سَرِقَتِـه . يجِب أنْ نقْبِضَ علَيـــه ونسلِّمَـهُ لِـرجَـالِ الأمنِ وإلاَّ أصْبَحْنَا أُضْحُوكَة المَدِينَةِ .

ولَمْ يَتَحَمَّس أغلَبُ الحَاضِرِينَ لانْشغَـالِهِم بأعمالِهم وتجَارتِهم ووظائِفِهِمْ عنِ القِيامِ بمثْلِ هذِه العَمَلِيةِ . فأجابَ أكبَرهُم سِنًّا :

- ينْبغِي أن نُخْبِرَ رجَـالَ الأمنِ والشرطَـةِ بـالسَّرِقَـة ، ونَتْرك الأمر بأيدِيهِمْ ؛ فهذَا شُغْلُهُمْ .

وقَالَ آخَرُ مؤَيِّدًا هذَا الاقْتِراح :

- بحْثُنَا عنِ اللِّص ربَّما اعتُبِر تَدخلاً في شُؤونِ رِجَالِ الأمنِ.

وعلَّقَ أحدُ المتشَائِمينَ الذِينَ لم يَكُن لَهُمْ أملٌ فِي استِرجاعِ المَسْروقِ بقَولِه :

- خَلفَ الله علَيكُم! مَنْ يسرِقِ الصَّوْمعَةَ يحفرْ لَهَا بِئْرًا ليَدْفِنَها فِيه.

وتَبِعَه الباقون علَى هذَا المِنوالِ منَ الأمثالِ المُثبطَة.

وغَضِب البيضَاوِي وخَرَجَ مِن الجَامع ثَائرًا وهو يُرَدِّدُ :

- سأَبحَثُ عن كَبشِي وحْدَهُ. هؤلاء مثلُ الذي يقال عنه : «أنْتَ باللُّقمةِ إلَى فَمِهِ وهُوَ بالعودِ إلى عَيْنَيْكَ» !

وفي اليومِ التَّالي بقيتُ سَجِينَ البيتِ أراجِع دُروسِي بأمرٍ من أبِي، عُقُوبةً لِي على غَباوتِي وإهْمالِي.

وخَرَجَ الوَالِدُ إلَى عَمِلِهِ فَسَمِعْتُ وأنا وَسطَ الدَّارِ صَوتَ «تَسْت»، فرفَعْتُ عيني نَحو السَّطْحِ، فإذا صَديقِي عِنانٌ يلوِّح

لِي باستعْجالٍ ويَطْلُبُ منِّي الصُّعودَ إليهِ .

وفي السَّطحِ أخبرَني بـآخِـر الأحـداثِ ، وكـان أهمَّهـا نَتِيجَـةُ المُؤتَمرِ المُتَخَـاذِلِ ، وطَـرْدُ صديقنَـا البرَّاقِ من دارِهِ . طَـرَدَهُ زوجُ أمِّهِ ، رغم تَوَسُّلِهَا إليهِ ؛ جزاءً لهُ علَى ضيَاع الكَبْشِ .

وحزَّ في نفْسِي هذَا الخَبَرُ . خُصوصًـا أنّه لَمَ تكُنْ لِي القُدْرةُ علَى إيوائِهِ أو مسَاعَدَتِهِ .

واقْترح عِنَانٌ اجْتِمَاعًـا لنَا ، نَحْنُ الصِّغَارَ أصحَـابَ الكِباشِ المَسْروقَةِ ، بمسجد سِيـدِي الغَزْوانِي . فرحَّبتُ بـالفِكْرَةِ ، وذَهَبْنَا نَـدُقُّ أبوابَ رفـاقِنَا ونُخـرجُهم ، حتَّى اجتَمَعَ أزيـدُ مِن عشرة ، وذَهبنَا عَبْرَ الشَّـاطِئِ إلى غَابتِنَا ، وهنَاكَ جَلسْنَـا نقلِّب الأمرَ عَلَى جَمِيعِ وجُوهِه ، عَمَلاً بقَولِ الرَّسولِ ﷺ : «يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ» .

وكَانتْ تحدُونـا فكرةٌ واحِـدةٌ ، هِي إنقاذُ البراقِ منَ التَّشرد . وفِي النِّهَايَـة انتَهَيْنَا إِلَى قـرارٍ هُو أن نَقُـومَ بالبَحْثِ عـن الكِباشِ بأنْفسِنَـا . وكُنَّـا مـدْرِكِينَ أن مَنْ سرقَهَـا لاَ يمكِنُ أنْ يبيعَهـا فِي المكَانِ نفسه الذِي سَرقَهَا مِنْه ، وأنَّهُ لَن يذْهَبَ بهَا بعيدًا كذَلِكَ .

وتَساءَلتُ :

- يا تُـرى ، هَل نَستَطِيعُ إقْنَاعَ البَيضَاوِيِّ صَاحِبِ الشَّـاحِنَةِ بمساعَدَتِنَا عَلَى التَّنَقُّل في شَاحِنتِه بيْن الأسواق ؟

فَصَفَّقَ الجَمِيع للفِكْـرةِ . خُصوصًـا والجَمِيعُ يعرفـونَ حَمَاسَه للْبَحْثِ .

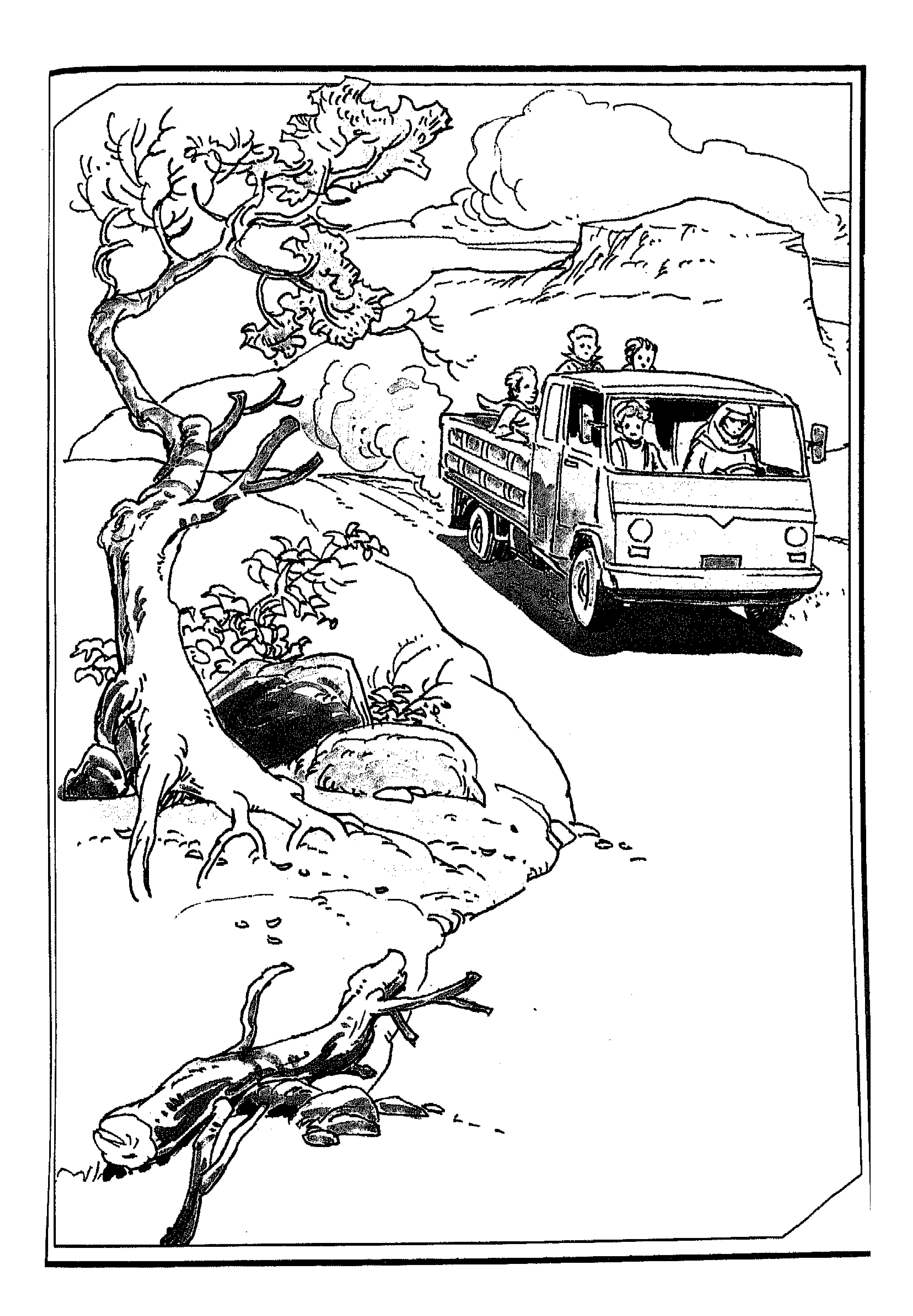
وذَهَبْنا لمقابلتِـه بالمرْآبِ ، فخَرَجَ إلينَا يمْسحُ يَـدَيهِ منَ الزَّيتِ بخِرقـةٍ سَوداءَ . ومَا إن اسْتَمَعَ إلَى اقتِراحِنَـا حتَّى تهلَّل وجْهُه . وأضفْتُ أنا :

- نَحْنُ نَعْـرِفُ كبَـاشَنَـا جَيـدًا . ويمكنُنَا العُثُـورُ عليهَـا بسُهولةٍ .

وردَّ رحَّالٌ :

- وهيَ تعرفُنَا كذلِكَ .

ولَمْ تمضِ لحظَةٌ حتَّى كنـا نَملأُ ظَهْرَ الشَّاحِنـة متوجِّهينَ نَحوَ (خميسِ السَّاحِلِ) نَهتِف ونُغَنِّي الأناشيدَ .



وعلى طَرف السُّوقِ توقَّفَتْ بنَا الشَّـاحِنة ونَزَلْنَا . وقَبلَ أن نَبْدأ جَمَعَنَا البَيْضَاوي، وقالَ :

«ستتفرقُون على حَلقاتِ السُّوقِ، وتنْظُرونَ وتُنْعِمونَ النَّظَرَ في وجْـهِ البائِع والكِبـاشِ . . فإذَا تعرفْتُم شيئًـا فانسحِبُـوا بهُدوءٍ، وارجعُوا عِنْدِي . ولاَ يتصرَّفْ أحدٌ مِنكُم بدُونِ عِلمِي؛ حتَّى لاَ يَهْرُبَ السَّارِقُ، ويَتَشَتَّتَ القَطِيعُ .

تَفرقْنـا ونَحْنُ نَشْعر بخُطُورةِ وأَهَمِّيَـةِ العمليةِ البُـوليسيةِ التي نقومُ بِهَا .

وبعْد فَتْرةٍ قَصيرةٍ عدْنا للاجتِماعِ حَول الشَّاحِنَةِ وخيبَةُ الأمَلِ على وجُوهِ الجَميعِ .

نَظَـرَ إلينَا البَيضَـاوِي، وفَهِمَ هبُـوطَ معْنَـويـاتِنا، فقـالَ ليرفَعَهَا :

- الأسواقُ كثيرةٌ . وسَـوفَ نَذْهبُ إليهَا واحـدًا واحدًا . ولنْ نتوقَّفَ حتَّى نعثُرَ على بُغيتِنَا .

سَرى حَماسُه وقـوة عزْمِه إلينَا، فصعـدْنَا الشَّاحِنَةَ كـالكِبَاشِ نَضْحك ونَمرحُ، وتَحركْنا.

* * *

في سُـوقِ اثْنَيْنِ (سِيـدِي اليَمانِي) جَمعَنَا البَيضَـاوِي ونَظَـرَ إلى ساعتِه :

- السَّاعَةُ الآنَ الحاديةَ عشْرةَ. بعْد عشْر دَقائِقَ أريدُكُم هُنَا. لا تضَيِّعُوا الوقتَ.

وصَفَّقَ بِيَديهِ فافترقْنا كُلُّ واحدٍ نَحوَ حَلْقةٍ.

في الوقْت المحـدَّدِ رَجَعْنَا فصعدْنـا الشَّاحِنـة إلى سُوقِ سبتِ (بني كَرفَطٍ). وهكَذَا مـرَّت السَّاعةُ تِلْوَ الأخـرَى، والسُّوق بعدَ الأخْرَى. وكُلَّمَا اجْتَمَعْنَا خاوي الـوِفاضِ اخْترعَ البَيْضَاوِي شَيْئًا لرفْعِ مَعْنَويَّاتِنَا.

وأَحْسَسْنَـا بـالجُوعِ معَ الظُّهـرِ، فجَمعَنَا حَـول خيمـةِ أحـدِ بَـائِعِي الشِّواءِ، وأطْعَمَنَـا وَسَقَانَـا شَايًـا سَاخِنًـا، وعَادَ بِنـا إلى



الشَّاحِنَةِ ، مرةً أخرَى ، وقَد أحْسَسْنَا بتجدُّدِ نشاطِنا وحماسِنا .

ومَعَ العَصْرِ وَصَلْنَا إلَى آخِر سُوقٍ مِنَ الأسواقِ القَريبةِ مِنْ مدينَتِنَا .

تَفرقْنَا وقُلُوبُنَا تخفِقُ خَشْيةَ الفَشَلِ ، رغْم أنَّ البَيْضاويَّ كَان أعدَّنَا نفْسيًّا لتقبُّلِه بقولِهِ :

– إذَا لَمَ ينْزِل اللُّصوصُ لبيْعِ مَسْروقِهِم اليومَ فسينْزِلُون غدًا .

دَخلتُ الحَلْقَةَ المُخَصَّصَةَ لي وخَرجْتُ بالسرعةِ نفسها . فقَد كَانَ ظَاهِرًا أنَّهَا غير ما أريد . كَانتْ البائِعةُ امرأةً ، والكِباشُ أغلبُها سودٌ . كِباشُنَا بيضٌ إلاَّ مِن بَعض البقَعِ السَّوداءِ أو البُنِّية . وهيَ مَوشُومةٌ بألْوانٍ حمْراءَ ونِيليَّةٍ زَرقَاءَ ، وسَماويةٍ باردةٍ إلى غَيرِ ذَلِكَ .

طَلعتُ على ظَهرِ الشَّاحِنةِ في انتِظَارِ بقيَّةِ الرِّفَاقِ ، وأخَذْتُ أمسحُ السُّوقَ مِن أعلى ، فبدا لِي كصحنٍ وَاسِعٍ عامِرٍ بالسَّفَنْجِ(*) مِن كَثْرةِ ما تجَمَّع فيه من الحلْقَاتِ حَول قطْعانِ الكِباشِ .

(*) حلقات من عجين مقلي .

لَاحظْتُ أن الحَلْقـةَ التـي دخَلْتُهـا هيَ الـوحِيـدَةُ التِي كُل كِباشِهَا مِن لـونٍ واحدٍ. بقيةُ الحَلْقَاتِ كانتْ تَتَعَـدَّد فِيها ألوانُ الكِبَاشِ.

عَـادَ بقيـةُ الـزُّمـلاءِ ينْفضُـون مـلاَبِسهم من غُبـار السُّـوقِ والبَهَائِم وقَدْ خَبا بَريقُ عُيونِهم مِن الخَيبةِ والتَّعبِ.

وَوَقَفَ البيضـاوي أمَامنَـا يَفْـركُ يديْـهِ، ويبْحَثُ عن كَلِماتٍ للتَّسرية عنَّا. وحينَ تَحَلَّقْنَا حوْلَهُ سَأَل:

- مَنْ رأى منْكُم شَيئًا غَيْـرَ عَادي؟

فَكَّرنَا، ونَظَرَ بعضُنا إلَى بَعْضٍ، وهزَّ البعضُ أكتافَهُم، فقَالَ المَعطِي:

- رأيتُ (عيْشَةَ حْميقَة).

وعَيشَةُ حْمِيقَةُ كَبشٌ بأربعـةِ قُرونٍ، فضَحِكَ البَيْضَاوِي، ولَمْ يُرِدْ أن يكْتُبَ بقية الملاحظَاتِ.

تَـردَّدْتُ أنا، فَلَم أكُن أرى أيَّ شيءٍ غَير عَـادي في قطِيعٍ منَ الأغنامِ السَّوداءِ.

فِي النِّهـايـةِ، وحتَّى لاَ تَبْقَى الملاَحَظَـةُ على ضَمِيرِي، رفَعْتُ يدِي، وقُلْتُ :

- لاَ أعتقِدُ أنَّ ما رأيتُه غَيرُ عَادِي. . .

هُنَا قَـاطعنِي (ولْد زْهيرُو) الَّذِي عـادَ لاهثًا من جَولتِـه ليقُولَ للبيضَاوي :

- رأيتُه. رأيتُه. . .

سأل البَيضَاوِي :

- مَنْ ؟

- الــرجُلَ، السَّـارِقَ الكـثّ الحَاجِبَينِ، عمَّ أحمَدْ. صِحْت محتَجًّا :

- لَيسَ عَمِّي! لقَد كَذَبَ علَينا جَميعا. . .

لَكِنَّ البَيضَاوِي أسكَتَنَا بقَولِه :

- أينَ رأيتَهُ؟ انتَظِروا أنتُم هُنا. تَعال أنتَ معِي.

قاد البيضاوي (ولْد زْهيرو) أمامَه، وذَهَب بِه، واخْتَفَيَا في زِحامِ الحَلْقاتِ.

صعَدْنا نَحْنُ فَوق الشَّاحِنَة، وسَألنِي عِنَان عَمّا كُنتُ سأقُولُه كملاَحظةٍ، فأشَرتُ لَه نَحو الحَلْقَة الوَحِيدةِ ذَاتِ القَطِيعِ الأسودِ.

انضَمَّ إلينَا رحَّالُ البرَّاقُ عازِفُ النَّايِ فَقالَ:

- لنَنْزِلْ ونَذْهبْ لنَرى مِنْ قَرِيبٍ.

نَـزَلْنَا بِسُرعَةٍ وقَصدْنَا الحَلْقَةَ. وتَسرَّبنَا إلَيها مِن بَيْنِ الجَلاَبِيبِ (والزَّعَابيلِ)(*) والحَمَائِلِ حَتَّى التَصَقْنا بأصْوافِ الخِرفانِ.

أخَذْنَا نَتأملُ وجُوهَ الكِباشِ، ولاَحظْتُ أن أحدَها ينظُرُ إليَّ نَظْرَةَ المَعْرِفَةِ فتأملتُه فإذَا هُو كَبشُنَا.

أمسَكْتُ بيدِ البراقِ، وهَمسْتُ في أذنِه وقلْبي يَخفِقُ مِن الإثَارةِ:

(*) جمع زعبولة: جراب.

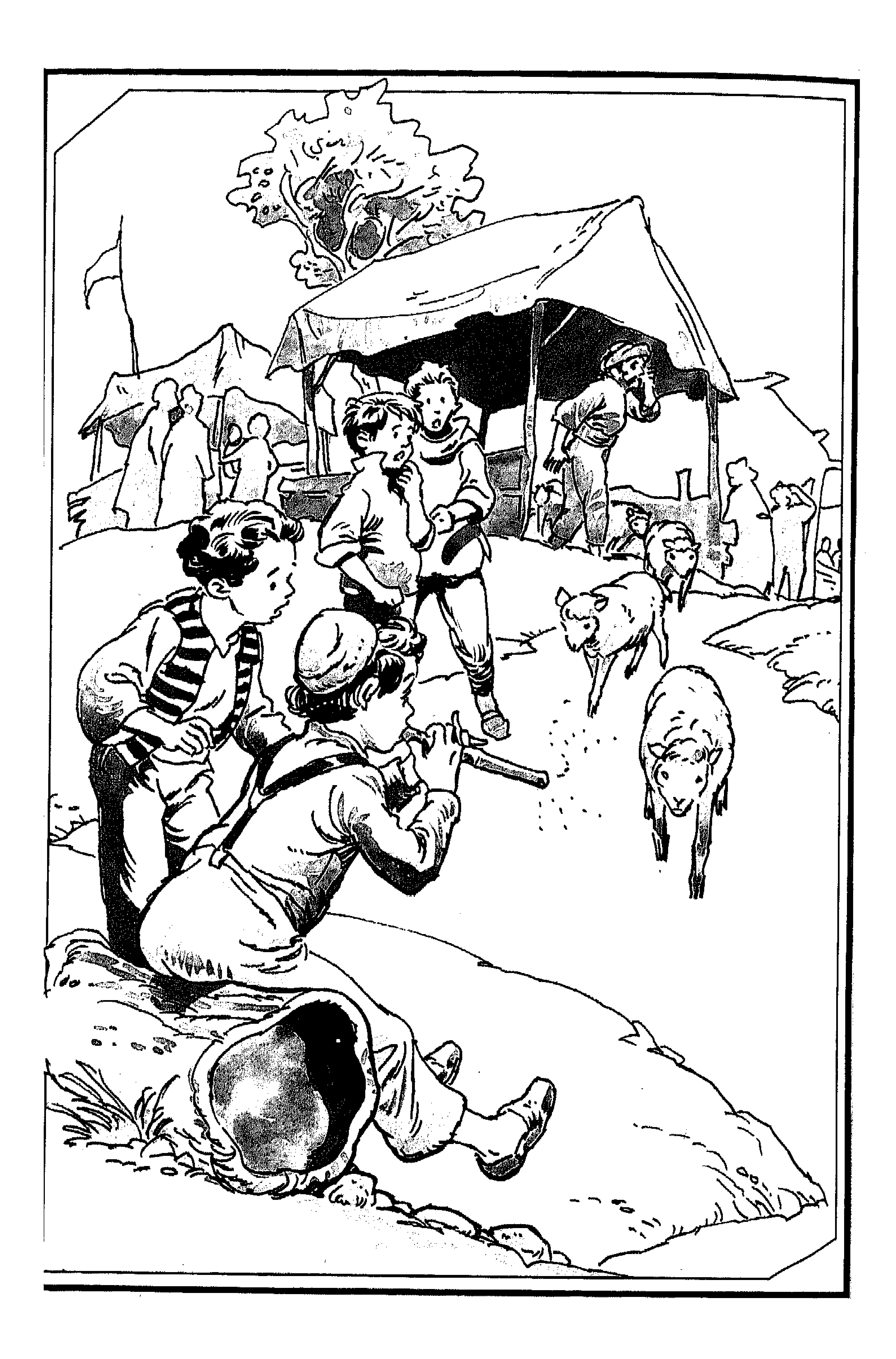
- كَبشِي هُنا. لَقَد صَبَغُوهُ بلَونٍ أسودَ.

انْضم إلينَا عِنانٌ ليَقُولَ لَنَا الشَّيء نفسَه عن كَبشِه. وفَجأةً تَعرفَ رَحالٌ خروفَهُ كَذلِكَ، فقَفَزَ مِن الفرحِ، حَتَّى أمسك به رَجلٌ ليُخْرِجَهُ منَ الحَلْقَةِ.

ولَكِنَّه انفلَتَ مِنْه، وأَخْرَجَ مِزْمارَه وَبَدَأَ يعزِفُ عليه اللَّحن نفسَه الذِي كنَّا نَغْدُو بِه ونَروح إلى الغابَةِ وقَطِيعُنا خَلْفَنَا. وَما كادَ القطيعُ يسمعُ اللَّحنَ ويُشَاهِدُنَا حتَّى تَوجَّهَ بكامِله نحونَا. وفتَحْنَا لَه نحنُ ثَغْرَةً في الحَلْقةِ، فخَرج خَلْفَنَا يَثْغُو والمُشْتَرونَ فاغِرو الأفواه مِن الدَّهشةِ والاستِغْرابِ!

وأخذتِ البائِعةُ تولْوِلُ وتَصِيح وتَستَغِيثُ. ومَا كَادَ المُشْتَرُون يتَحركُونَ للأخذِ بحَقِّها وإرْجاعِ القَطِيعِ حتَّى كنَّا نَحنُ قَد وَصَلْنا إلَى الشَّاحِنَةِ. وهُناكَ التقَينَا البيضَاوِيَّ الذِي صعد على ظَهر الشَّاحنة كأحد الخُطَباءِ، وأخَذَ يشْرح للرجَالِ الهَاجِمِينَ عَلَينَا قصة الكِباشِ المسروقةِ.

ومَا إن سَمِعَتِ المَرأةُ كَلاَم البَيْضَاوِي حتَّى بدَأت تُحاولُ



الإفلاَتَ والفرارَ. ولكنَّ جمهورَ الواقِفينَ أمسكُوا بهَا، وذهَبَ من جَاء بِرجالِ الشرطة فقَبَضُوا عَلَيهَا.

ومَـا كَادُوا يستنطِقُـونَها حتَّى اعترفَتَ بكُلِّ شيءٍ، ودَلَّت عَلى السَّارق الحقيقي، وكان مختبئًا في السُّوقِ، فقَبضُوا عليه.

وركِبنَا نَحنُ شَاحِنَتنَا ومَعَنَـا قطيعُنَا كاملاً غيرَ منقُوصٍ، إلاَّ مـا كـان منْ لـونِهِ الأسـودِ. ونَـزَلْنَـا المدينَـةَ نُغَنِّي ونَهتِفُ حتَّى دَخَلْناها دُخُولَ المُنْتَصِرِينَ.

وعَـادَ البَرَّاقُ بـالكَبشِ إلى دَارِه. واستَقْبَلَه زَوجُ أمـه فأدْخَلَـه رَاضِيًا عَنْهُ، وفَرِحَ الجَمِيع بعودةِ الكِبَاشِ المَسْروقَةِ ونجاة البرَّاقِ من التشرُدِ.

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء ... المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضـ... فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الـ... الحديثة للـ... العالم العربي.



مكتبـ...